الفصل الثالث

المبحث الأول

التغيير السّياسي وإشكالية فهم المدن المضادة

يجعل ابن رشد مدينة الرسول هي المعلم الذي يقيس به فساد المدن أو عدمها، ويجعلها هي بداية المدينة السياسية في أمة الإسلام. وبالتالي فجميع المدن اللاحقة فهي إما متحولة أو متبدلة عنها. وهذه الرؤية تفرض على ابن رشد أن يكون ترتيب المدن الجاهلة على خلاف الفارابي تماما، لأن دولة بني أمية باعتبارها أول مدينة متحولة عن مدينة صاحب الشرع، ولم تكن مدينة الضرورة التي جعلها الفارابي أول مدينة مضادة للمدينة الفاضلة.

وعلى هذا الأساس سنرى بعد عرض وتحليل أفكار ابن رشد حول المدن المضادة، أهم الاختلافات الحاصلة بينه وبين رؤى كل من الفارابي وابن باجة.

اولا: المدينة الكرامية

كنا سابقا تحدثنا عنها من وجهة الفارابي[1]، وهي تتخذ عند ابن رشد نفس المعنى، أي مدينة المجد والشرف وحكم العُصبة، وتتصف بنفس الصفات التي وصفها بها الفارابي في كتابه السِّياسة المدنية. وينفرد ابن رشد بتحديد معلمها التاريخي حين يصرح كون معاوية بن أبي سفيان هو أول من أسس هذا النَّوع من المدن في تاريخ المسلمين، وبالتالي كان أول رئيس جاهل بالمفهوم الفلسفي حوّل المجتمع عن مدينته الفاضلة. ولنتأمل ابن رشد مصرحا ومنتقدا حكم معاوية: "وأنت تقف على الذي قاله أفلاطون في تحول السياسة الفاضلة إلى السياسة الكرامية، من سياسة العرب في

---

(١) راجع الفصل من هذا البحث (المدن الفاضلة في الفكر الإسلامي).

الـزّمن القـديم، لأنهـم حـاكوا السّياسـة الفاضـلة ثـم تحولـوا عنهـا أيـام معاويـة إلى الكرامية[١]".

تنطلق نظرية ابن رشد في تحليل فساد المدن من المعطى الطبي، ففسادها شبيه بفساد الأجسام الطبيعية، غير أن فساد المدينة الفاضلة لا يكون من حيث الجوهر، بل فسادها يكون بالضرورة والحتمية الإنسانية[٢].

وابن رشد لا يرد فساد المدينة الفاضلة إلى النوابت كما فعل الفارابي، بل يلقى عاتقه على الصنف المترئس عليها: "أما من أين يدخلها الفساد ؟؟ فجلي أنه يدخلها من الصنف المترئس عليها، إذا ما عرض له ما يزعزع كيانه فلحقه الفساد وامتزجت فيه أخلاط من غير الذهب والفضة[٣]". وتلك الأخلاط لو قسناها على المجتمع الإسلامي زمن معاوية بوصفه هو المنعوت بالفساد، لكانت بقايا الجاهلية العربية، التي أعاد الأمويين إحياءها بعد أن قضى عليها صاحب الشرع (ص).

حاول ابن رشد استنادا إلى المتن الأفلاطوني أن يُحلل ظاهرة التّحول اجتماعيا، فالسّادة عندما أهملوا اختيار النظائر في النكاح على ما هو عليه الناس من المعادن، يحدث أن يلد أبناء ليسوا من معدنهم فيتولوا أمور السياسة وهم ليسوا لها، لأن معادنهم الحقيقية تنزل منازل الصناع أو الحراس، وأول علامة من علامات التّحول كرههم للموسيقى وحبهم للرياضة (الفروسية و..)، عندئذ يتقوى فيهم الجزء الغضبي والشهواني، ويحدث أن يختلطوا بالسّادة [لكونهم أبناء لهم] فيجذب كل قرين قرينه إلى التشبه به[٤]. لتظهر آخر الأمر الأمور التالية:

---

(١) الضروري في السياسة، ص ١٨٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٨٠.
(٣) الضروري في السياسة، ص.ص ١٨٠/١٨١.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٨١.

أولا: امتلاك الأموال: نتيجة فساد المنظومة التربوية، وغياب معايير اختيار النظراء، يلد السادة ولدان أغلبهم من الصنف الحديدي والنحاسي [لعل ابن رشد يشير إلى أبناء الجواري]، فينكبون على جمع الأموال واكتنازها، بينما يظل من كان صنفه ذهبيا في البحث عن الفضائل، إلا أن وجود طرفين متناقضين في السلطة يفرض ضرورة التوسط في نظام الحكم، فلا هو فاضل ولا هو غير ذلك: "فإذا تمادى الجذب بين الفرقين، اختاروا أمرا وسطا بين السياسة الفاضلة والسياسة التي يجمعون فيها الأموال(١)".

وتلك الوسطية تعني عند ابن رشد تحول السياسة إلى خليط بين الخير والشر: "فهذه السِّياسة يخالطها الخير والشر(٢)". وبالتالي فهي وسط بين سياسة اليسار، أي سياسة القلة، وسياسة الفضلاء.

ثانيا: ظهور العبودية: يرى ابن رشد أن المدينة الكرامية بفعل الفساد الذي دب في أوصالها، يتحول الحفظة إلى عبيد ومرتزقه، ويتحول جُماع الأموال إلى سادة قاهرين يعشقون التّروض والكرامة. وتلك الصِّفة قد ندركها من خلال ما قام به أمراء الدَّولة الأموية خاصة تشجيع الشعراء، وبذل العطايا لهم مقابل مدحهم وتكريمهم.

ثالثا: الحكم الأرستقراطي: أن طبيعة الحكم تتجه نحو حكم الصفوة، ويصبح معيارها الأساسي ليس الخطابة وقوة تأثير البيان، بل صفات الشجاعة والقدرة على الحرب.

رابعا: التباين بين مرحلة الشَّباب والكهولة: فابن رشد يتبنى الرأي الأفلاطوني الذي يصف المُتحول بصفتين متباينتين، ففي شبابه يكون كارها للمال وجمعه(٣)،

---

(١) المصدر والمكان نفسه.
(٢) المصدر السابق، ص ١٨١.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٢.

محبا للحرب والرياضة غير أنّه في شيخوخته يميل إلى جمع المال، ويتحول طبعه إلى كرامي، وتضمحل في طباعه صفات الفضيلة.

خامسا: توالد قوى الشر: ويعتقد ابن رشد أن قوى الشّر تتوالد، نتيجة عدم التكافؤ الاجتماعي، وأنّهم ينبتون داخل البيوتات كما ينمو نبات الشّوك، وتنتشر بأفعالهم الشرور ويعظم الخطب، وتكثر الخصومات، وتنموا الأحقاد التي تجعل الكرامي يقتل خصومه إن شعر بالإهانة والإساءة(١).

سادسا: امتهان الرجل أكثر من مهنة: من المعلوم أن نظام المدينة الفاضلة لا يسمح بأكثر من مهنة واحدة، غير أن المدينة الكرامية يصبح أهلها يمتهنون أكثر من مهنة، وينظرون إلى من يقتصر على واحدة أنه أحمق وناقص العقل، ويمدحون ويكرمون من يخوض في كثير من الأمور(٢).

سابعا: الحكم في الأندلس كرامي: وآخر ما يصل إليه ابن رشد، هو إسقاط تلك الصفات الكرامية على أنظمة حكم المدن الأندلسية التي يُعاصرها ابن رشد: "ويشبه أن يكون الأمر كذلك في السياسة الموجودة اليوم في هذه الجزر[الأندلس](٣)".

ومن خلال هذه المقولة الأخيرة، نكتشف أن ابن رشد في عرضه للأصناف المدن المضادة للمدينة الفاضلة، يريد أن يمارس عملية النقد السياسي لأنظمة الحكم، ومن جهة أخرى يصرف أنظار السلطة عنه من خلال التّحدث بلسان أفلاطون. وبعد أن تم عرض طبيعة مدينة الكرامية كان السؤال الحاضر: إلى ما تتحول المدينة الكرامية ؟؟

ثانيا: مدينة القلة [النذالة]

بعدما يسيطر حب جمع المال على الكرامي (الوُلاة خاصة)تكون أنفسهم مهيأة لتقبل الشرور وممارستها، وخاصة أنهم لا يسمحون أن يشاركهم في اليسار غيرهم،

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٨٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٤ .

وبالتالي ينشأ نظام القلة، الذي يتجه سادتها إلى حب المال وعبادة الدينار، عندئذ يصبح وصفها كالآتي: "وهذه الرئاسة، هي رئاسة النذالة والاحتقار والوضاعة وعدم الثبات، تفسد بالشيء القليل مما قد يأتي من خارج أومن داخل[1]".

ومدينة القلة تكتسب جملة من الصفات تكون آخر الأمر سببا في زوال نظام حكمها، وهي على النحو التالي:

أولا: رئاسة غير الأكفاء: أن الحكم يستلمه من هو أوفر الناس مالا، وبالتالي يكون حكمه غير نافذ لعدم نفاذ بصيرته، تكون الطاعة طاعة لماله وليس لشخصه، وأمره المدينة كأمر السفينة التي يقودها ربان غير متمرس أو عالم بفن الإبحار[2].

ثانيا: اتخاذ أسلوب المسالمة: ليس نتيجة اقتناعهم بالسلم ونبذ الحرب، بل لأن القلة لا تمتلك الشجاعة، وبالتالي لا تستطيع ممارسة الحرب، وبما أن حب المال امتلك نفوسهم فهم لا يريدون أن يتخذوا حماة لهم لسببين: الأول الخوف من فقدان صفة القلة، وأن يصبح الآخرون أغلبية فيطيحوا بنظامهم السياسي، والثاني أنهم يَضِنُّونَ بأموالهم لنذالتهم.كما أن احتمال خوض الحرب بأنفسهم ممتنعة، وإن خاضوها فروا لقلتهم.

ثالثا: شراهة جمع الأموال: يتحول الولاة بفعل ممارسة جمع المال إلى كائنات طفيلية، تستبيح كل الطرق لجمع المال، فتصبح القوانين والنواميس في خدمة أغراضهم الشخصية، فيكثرون من الجباية والمكوس التي تسقط عنهم.فيزدادون ثراء وتزداد الأغلبية فقرا وفاقة، ويكثر عدد الفقراء، فيتحول بعضهم إلى لصوص وقطاع طرق، فيتحول حال المجتمع إلى ما لا يحسد عليه من قلة الأمن والخوف.

رابعا: نهاية المدينة القلة: بعد أن تسود القلة ويكثر ثراؤها، يكثر الأشرار الذين ينمون داخل المدينة كالشوك، كما يكثر عدد الناقمين على الأغنياء. ويتوصل الفقراء إلى

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٨٥.

(٢) المصدر والمكان نفسه.

قناعة تاريخية، أن غناهم في تواضعهم وأنهم هم الأغلبية وأن الآخرين هم الأقلية، عندها يعلنون الثورة: "هذا إذا ما تواعد الفقراء الذين فيها، ضد الأغنياء، فيسلبنهم أموالهم ويقتلونهم أو يخرجونهم من المدينة[١]".

خامسا: إسقاطات رشدية: مدينة القلة عند ابن رشد يماثلها في تاريخ الأمة الإسلامية دولة المرابطين في طورها الثالث: "مثال ذلك في هذا الزمان دولة القوم المعروفين بالمرابطين، إذ كانوا في ابتداء أمرهم يتبعون السياسة الشرعية، وذلك مع أول القائمين فيهم (يوسف ابن تاشفين)، ثم تحولوا مع ابنه إلى السياسة الكرامية لما أصابه هو أيضا حب المال، ثم تحول حفيده إلى السياسة الشهوانية في جميع الأشياء الشهوانية[٢]". كما يحاول ابن رشد أن يتنبأ بمصير دولة الموحدين: "فهي سريعة الفساد (مدينة القلة)إذا لم تسم بالفضيلة أو بالكرامة، كالأمر في المدن الجماعية في زماننا هذا والذي سبقه[٣]".

سادسا: منزلة مدينة القلة: أما منزلتها ضمن سلم القِيَّم، فهي مدينة الشرور والضرر، وأن مدينة الكرامة أفضل منها قياسا لارتباط هذه الأخيرة ببعض مبادئ الفضيلة[٤]، وبالتالي فإنها أسرع المدن فسادا وانحلالا، وأكثر المدن تحولا وتبدلا.

سابعا: الثورة والقتل فيهم جائزة: يُجوِّز كل من أفلاطون وابن رشد الثورة على أصحاب القلّة، بل ويرى أن امتناع قيام الأفعال الاجتماعية فيها يجعل من الأولى قتلهم والإطاحة بهم: "يظن أن مثل هؤلاء الناس أولى بالقتل، فهم في شقاق دائم[٥]".

وبناء على ما سبق فالسؤال الحاضر إلى أي مدينة تتحول؟؟

---

(١) المصدر السابق، ص١٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٩٠.

(٤) المصدر السابق، ص ١٩١.

(٥) المصدر نفسه، ص١٩٠.

ثالثا: المدينة الجماعية [الأحرار]

يُحوِّل الثُّوار مدينة القلة إلى مدينة الجماعة، التي عرفها ابن رشد: "فأما المدينة الجماعية فهي التي تكون الرئاسة فيها بالاتفاق والبخت (القرعة) لا عن إستئهال، إذ كان ليس في هذه المدينة لأحد على أحد فضل[١]". ويتجهون صوب تكريس مبدأ حقوق الجماعة السياسية، ويركزون على حرية الأفراد. وتصبح السلطة سلطة الجماعة، والرئيس يُختار من بينهم عن طريق الاقتراع، ويكون الناموس الذي يتبعونه قائم على الحرية والمساواة. وتظهر على المدينة عدة صفات، نذكر منها ما يلي:

أ- الحرية المطلقة: نتيجة تقديسهم للحرية، ينشغل أفرادها بأمور بيوتهم ومساكنهم، ويصبح كل فرد مستقل بذاته: "وبالجملة، فلا يفضل بينهم شيء سوى الحرية المطلقة، وأن يكون الرجل مُتحكما عندما يريد وكيف ما يريد[٢]".

وعلى هذا الأساس تعتمد مدينة الأحرار على سياسة التدبير المنزلي، الذي بطبيعة تركيبته الأسرية يعتمد على نظام البيوتات، يقول ابن رشد: "وإن الاجتماعات القائمة في العديد من الممالك الإسلامية اليوم، هي الاجتماعات القائمة حصرا على البيوتات[٣]".

ب-المساواة الفجة: نتيجة الاعتقاد بحرية الفرد، يتساوى الآباء والبنون، السادة والعبيد، النساء والرجال. وينجم عن هذه المساواة الفجة تعطيل القانون، وتذهب هيبة الأباء والحكام. والخطاب السياسي يجعل كل المواطنين متساوين أمام القانون بموجب الدستور، غير أن الممارسة تخالف المبدأ العام.

---

(١) ابن رشد، تلخيص الخطابة، تحقيق عبد الرحمان بدوي، دار القلم، بيروت، ١٩٥٩، ص٦٨.
(٢) الضروري في السياسة، ص ١٩٣.
(٣) تلخيص السياسة، ص١٨٧

ج- الأصناف الثلاثة: يظهر في المدينة الجماعية ثلاثة أصناف من الناس، الأول صنف الزنابير(نوع من الحشرات الشبيهة بالنّحل)وهم الذين ظنوا أن الحرية في تحقيق أكبر قدر ممكن من اللذات والشهوات، ويمثلون في المدينة الجماعية طبقة السادة المبجلون والمكرمون. والصنف الثاني هم المَمْقُوتُون الذين يجمعون المال وحده ولذاته، أما الصِّنف الأخير فهم الطفيليون الذين ينفردون بأعمال لهم، ولكنهم ليسوا بأصحاب مال.

والعلاقة بين الأصناف الثلاثة تتجه نحو التَّدافع والصِّراع، إذ يعمل الزنابير على سلب أهل اليسار ما لديهم من أموال بغية صرفها في ما يشتهون، ويساعدهم في ذلك فئة الطفيليون. إن حكم الجماعة (الديِّموقراطي) يقسم المجتمع إلى قسمين، الأول يمثل الجمهور الذي يمثل المجتمع المدني، ويتخذ كل فرد صفة المواطن، والثاني يمثل السادة والساسة، الأول أكثرية والثاني أقلية.

د- الفئة المضطهدة: في المدينة الجماعية تنعكس ظاهرة الغلبة والاضطهاد إذ يتحول أصحاب اليسار إلى الفئة المضطهدة: "غير أن أصحاب اليسار يكونون مضطهدين في هذه المدينة، إذ يجتمع هذان الصنفان على سلب ونهب أموالهم(١)".

ويعمد رئيس المدينة الجماعية إلى أخذ جزء من أموالهم، باعتباره فضلة يجب أن توزع على العامة، وسلوكه إنّما هو من أجل إرضاء العامة وكسب دعمها.

هـ - حد الحرية المطلقة: وبما أن لكل أمر منتهى ينتهي عنده حده، فالحرية المطلقة تتحول بفعل الممارسة غير الواعية إلى سلوك فوضوي. ونتيجة تنامي ظاهرة التنافر والقسوة والنهب، يتحد العامة مع الصنفين السابقين ويعملون على اضطهاد أهل اليسار، فيضعف ويقل الأغنياء بينما يزداد عدد الغوغاء من العامة والزنابير حتى يصيروا هم الفئة الغالبة، عندئذ يُصبح الحكام بدون سلطة، وتفقد المدينة هيبتها، ويصبح حكم المدينة غير جماعي.

---

(١) الضروري في السياسة، ص ١٩٤.

ز- إسقاطات رشدية: من خلال التحليل الرشدي لطبيعة المدينة الجماعية، نستنتج جملة من الإسقاطات الرشدية، منها ما هو إيديولوجي ومنها ما هو علمي موضوعي، ويمكن أن نجمل تلك الإسقاطات في النقاط التالية:

١- أن المدن الأندلسية مدن جماعية فاسدة، تشبه تلك التي تزامن وجودها زمن ابن رشد ومن قبله زمن فلاسفة المحنة. وفسادها يكمن في طبيعة نظامها، إذ أن أغلب المدن الموجودة في أيام ابن رشد، هي من جنس المدن الجماعية(١). أو من جنس المدن الإمامية: "كما هي حال المدن الجماعية الموجودة في زماننا، وكذلك السابقة كما كانت الحال في فارس، وكما هي الحال في العديد من مدن زماننا(٢)".

٢- أن الحكم الجماعي أسرع الأنظمة استهلاكا للخطابة، وكثرة الجدل والسفسطة فتفسد أخلاق الشباب، ويصبح كل فرد يتحدث باسم الجماعة، فتضيع عندئذ الحريات لكون كل فرد يعتقد أنه حر يفعل ما يشاء، وأول مظاهر تهافت المدن الجماعية انعدام العلاقة بين الأفراد وتحرر الأبناء من سلطة الأباء، والعبيد من السادة، وتطاول العامة الدهماء على العلماء والحكماء.

٣- يعد الحكم الجماعي في العلم المدني من السياسات الناقصة، ومن التدابير الغريزية، لا يعكس الكمال الإنساني المطلوب، ولا يصل إلى السعادة المنشودة، ولا تربى في حضنه الحكمة المقصودة. يجمع بين الخير والشر، بل كما قال أفلاطون تتساوى فيه قيم الخير والشر، وترى الناس كلهم سادة، والحاكم يغدو مجرد حاكم صوري، مهمته إرضاء الجميع حتى يرضى عنه الجميع.

---

(١) الضروري في السياسة، ص ١٧٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ص ١٧٥/١٧٦.

٤- المدينة الجماعية مفتوحة على كل الاحتمالات: يرى ابن رشد أن الفلاسفة يجدون في هذه المدينة بغيتهم لأجل بناء المدينة الفاضلة، والعلة تكمن في وجود جميع أخلاق النفس، فالفيلسوف يستطيع ضمن مدينة الحريات أن يُكون فريقا من العلماء ليربوا من توفرت فيهم صفات الفضيلة، وإعدادهم ليكون نواة المدينة الفاضلة.ومن جهة أخرى أن جميع المدن غير الفاضلة يمكن أن تنشأ من هذه المدينة أصلا: "وعن هذه المدينة تنشأ المدينة الفاضلة وغيرها من أنواع المدن، لأنها موجودة فيها بالقوة، حيث توجد في هذه المدن أخلاق النفس جميعا(١)". ويوافق ابن رشد رأي أفلاطون القائل بضرورة أن يستغل الفيلسوف وجودها لكي يختار الفضلاء بالطبع من بين الولدان الذين يمتلكون معدنا ذهبيا أو فضيا: "ولذلك ينبغي للفلاسفة، كما قال أفلاطون، أن يستعدوا لمثل هذه المدن، وأن يختاروا منها أفضل الأنواع الموافقة للجماعة الفاضلة حتى ينشئوها فيها(٢)". وشبها كل من أفلاطون وابن رشد هذه الفرصة بفرصة من يريد أن يفتح حانوتا للطيب، فيختار أطيب الروائح.

رابعا: مدينة الطغيان [الغلبة]

يعتقد ابن رشد خلافا للفارابي أن المدينة الجماعية تتحول وفق حتمية تاريخية لا إنسانية إلى مدينة الطغيان، حيث يتحول حكم الجماعة إلى حكم الفرد المطلق، الذي اصطلح ابن رشد على تسمية بوحداني التسلط، ونفس المصطلح ورد في كتابه تلخيص الخطابة: "وأما وحدانية التسلط فهي الرئاسة التي يحب الملك أن يتوحد فيها بالكرامة الرئاسية(٣)". ومدينة الطغيان هي التي يتولى فيها الفرد الحكم بالقوة،

---

(١) الضروري في السياسة، ص١٩٠.
(٢) المصدر والمكان نفسه .
(٣) تلخيص الخطابة، ص ٦٩.

ويستمد قوته وغلبته حسب أفلاطون وابن رشد من التسيب والانحلال الذي يصيب المدينة الجماعية.

حاول ابن رشد أن يُحلل ظاهرة تحول المدينة الجماعية إلى مدينة الطغيان، ليس لكون أفلاطون تحدث عنها في كتاب السياسة، بل لأن ابن رشد كان شاهد عيان على التحول الذي طرأ على الدولة الموحدية، فبعد أن كانت مدينة جماعية خاصة مع رئيسها الأول ابن تومرت شهدت في عهد ابن رشد تحولا نحو مدينة الطغيان (TYRANNIE) من خلال شخصية المنصور.

والسبب المباشر للتحوّل يكمن في: "الإفراط في طلب الحرية والتزيد منها إلى ما لا نهاية[١]". ونتيجة الإفراط انقلاب الشيئ إلى ضده. أما الأسباب غير المباشرة فتكمن في البنية الاجتماعية لأهل المدينة الجماعية، فبعد أن يكثر الإسراف في ممارسة الحرية تضعف بنية الترابط الاجتماعي، فيجد من كان معدنه يميل إلى النَّزعة الثيموسية الجو مؤهل للممارسة القهر والتسلط، ونزع الاعتراف بأحادية التسلط من الرعية. ويقدم ابن رشد نموذجين من تاريخ قرطبة، الأول عندما استولى ابن غانية على قرطبة سنة ٥٤٠/ه فمارس الاستبداد والقمع، علما أن المدينة قبله كانت جماعية بعد أن طردوا المرابطين منها، وكان من بين قضاتها جده. ولنتأمل هذا الاعتراف الرشدي: "مثال ذلك الرئاسة التي في أرضنا هذه، أعني قرطبة بعد الخمسمائة، لأنها كانت قريبة من الجماعية كلية، ثم آل أمرها بعد الأربعين وخمسمائة إلى تسلط[٢]". والمثال الثاني هو ما يحصل في عصره هو بالذات، فالمنصور بعد أن تولى الحكم وقتل أقرب الناس إليه، تحول إلى طاغية ومستبد: "يتبين لك هذا من المدينة الجماعية فإنها كثيرا ما تؤول إلى تسلط[٣]".

---

(١) الضروري في السياسة، ص ١٩٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ص ١٩٤/١٩٥.
(٣) المصدر نفسه، ص١٩٤.

وفي هذا السياق يحكم ابن رشد على المدينة الأندلسية الراهنة على أنها مدينة الطغيان، وأن حاكمها المنصور يمثل أحادي التسلط.

وعلامات التسلط التي يذكرها ابن رشد على لسان أفلاطون لم تكن سوى العلامات الدالة على طغيان المنصور، ومن هذه الزاوية يمكن أن نفهم لماذا اختار ابن رشد أفلاطون محاورا في مجال الخطاب السياسي.

وعلامات أحادية التسلط كما يورده ابن رشد، نحاول أن نحللها وفق الترتيب التالي:

١- حمل جميع الناس على ناموس واحد: لكي يُثبت للناس أنّه لهم هاد ومرشد، وأنّه حام الشريعة، ويحاول أن يوهم الناس أنّه متمسك بأوامر صاحب الشرع: "إنّه يكون من حال هذا الرجل [يقصد المنصور بالخصوص] أن يعمل على حمل جميع الناس ودفعهم ليستمسكوا بالنّاموس حتى يظنوا أنه ليس وحداني التسلط[١]". ولكي يؤكد ذلك، يمارس في بداية حكمه سياسة تقسيم الأموال والطيبات من الأرزاق على رعيته، لكن بعدما يسالم أعداءه ويأمن شوكتهم، يغير سياسته السابقة.

٢- إشعال الحروب باستمرار: والغرض من إشعال الحرب باستمرار تأمين انشغال الناس بها عن سياسته، ومن ناحية أخرى تؤمن له الغطاء الذي يسلب الناس ممتلكاتهم، وعندما يتحقق له ذلك يغرق أهل مدينته في قضايا القوت والملبس والمسكن، ويصبح الاشتغال بالسياسة أمر ممقوت.

٣- ممارسة سياسة التطهير السياسي: بعدما يتقوى على أعدائه، يبدأ في تتبع كل من يمتلك أموالا عظيمة، ويحاول أن يُطهر المدينة منهم، حتى يأمن قوتهم: "ولذلك يستعمل كل ما في وسعه لمعرفة هؤلاء، أعني أصحاب القهر

---

(١) الضروري في السياسة، ص١٩٥.

والشجاعة والعظمة من بينهم، فيتآمر عليهم إلى أن يُطهر المدينة منهم[١]".

ويعترض ابن رشد على مصطلح التطهير الذي استعمله أفلاطون، ويحاول أن يضعه في إطاره الصحيح، فهو ليس تطهير بالمعنى الأمثل للكلمة، كالذي يمارسه الطبيب عند معالجة الأجسام أو الفلاسفة في تدبير المدن، بل هو تطهير سياسي خبيث: "وهذا التطهير عكس التطهير الذي يطهر به الأطباء الأجسام، والفلاسفة المدن[٢]".

٤- المغالبة بغير أهل مدينته: إن ابن رشد نتيجة صحبته للمنصور، استطاع أن يعرف نفسيته، وأن يوافق ما اكتشفه ابن رشد من خلال التجربة الشخصية ما قاله أفلاطون، فالطاغية يعلم أنّه مكروه ممقوت في مدينته، لهذا فإن المغالبة تفرض عليه الاستعانة بقوم خارج مدينته، فيجعلهم محل ثقته، فيزداد طغيانا بهم، ويزدادوا هم جورا وظلما لأهل المدينة: "وإنّما يتهيأ له هذا إذا اتخذ قوما أشرارا غرباء من غير أهل المدينة، ويأتي بهم من كل فج إذا ما وفر لهم العطاء[٣]". وواضح أن أغلب مدن الأندلس والمشرق كانت تمارس هذه السياسة، فلقد استعان سلاطين بني العباس بالأتراك والسلاجقة، واستعان أهل الأندلس تارة أخرى بالمولدين.

٥- خذلان سادة المدينة: يكتشف سادة المدينة أنهم أخطأوا حين سلموا الرئاسة له، فيحاولون إخراجه من المدينة، لكن الطاغية يعمل على التنكيل بهم شر التنكيل، والطاغية والمستبد بطبيعته يستعمل كل الطرق والوسائل للوصول إلى أهدافه الخسيسة، وكما يقول ابن رشد فهو لا يتورع عن قتل أقرب الأقرباء إليه كابنه وأبيه، يصف ذلك ابن رشد في قوله: "وهذه

---

(١) المصدر والمكان نفسه.
(٢) المصدر والمكان نفسه.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٦.

الأعمال هي جميعا من أعمال رئاسة وحدانية التسلط، وهي شيء بين في أهل زماننا هذا ليس بالقول فحسب، ولكن أيضا بالحس والمشاهدة[1]".

ولعل ابن رشد يقصد بالمشاهدة ما فعله المنصور بعمه وإخوته، وكل من ظن أنهم يعملون على الإطاحة به.وهو نفسه ما سيصيب ابن رشد لاحقا (أي النكبة).

إن أسوء الأنظمة في رأي ابن رشد هي التي تقوم على الطغيان والاستبداد، لأن نتائجها ستكون على النحو التالي:

أولا: مصادرة الفكر وتعطيل الشرع وكبح العقل، مما يؤدي إلى يأس الحكماء من الاجتماع الإنساني، كما حدث لابن باجة وابن الطفيل.

ثانيا: زوال الحرية التي كانت شعار المدينة الجماعية قبل رئاسته، وبروز العبودية المطلقة.: "وجلي أن هذه المدينة [أي قرطبة] في غاية العبودية وأبعد ما تكون عن الحرية[2]".

ثالثا: تحول نفس الرئيس إلى نفس مريضة، تعزوها الكراهية للآخرين، كما يمتلكه الحسد والحقد.

رابعا: يمارس سياسة العزلة داخل قصوره، فلا يغادرها أبدا، وحاله كما قال ابن رشد كحال المرأة في بيتها.

خامسا: أن جميع أهل مدينته يكرهونه، ولا يبادلونه حبا ولا وفاء، ويسقط ابن رشد هذه الظاهرة على أهل قرطبة تجاه المنصور: "فإن نهج المتسلط هو نهج الذي هو في غاية الجور، لأن ذلك في غاية التناقض مع ما عرفنا من قبل أنه الأمر الصحيح، كما هو الحال في هذه المدن [الأندلس][3]".

---

(١) المصدر السابق، ص.١٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠١.

(٣) الضروري في السياسة، ص ٢٠٠.

سادسا: انتشار ظاهرة الفقر في أوساط أهل المدينة، والفقر فقران: فقر مادي نتيجة عدم امتلاكهم الأموال، وفقر معنوي نتيجة افتقادهم الفضيلة، ويشارك المستبد في النوع الثاني من الفقر: "فكذلك النفس المتسلطة هي فقيرة ليس لها ما يشبع[١]".

سابعا: انتشار الرعب والإرهاب من قبل طرفين، فالطرف الأول هو الرئيس المستبد، أما الطرف الثاني فئة الزنابير التي تحدثنا عنها سابقا، والتي تلجأ إلى قطع الطرق وامتهان الصعلكة: "وخرجوا من المدينة يقطعون الطرقات ويسلبون الناس نفوسهم وأموالهم[٢]". وهذا لا يعني أن الرئيس لا يكون مرعوبا، بل هو أشد الناس رعبا في المدينة نتيجة عدم ثقته في الناس أجمعين: "وكما أن هذه المدينة في غاية الرعب فكذلك المتسلط[٣]".

بعد ما أنهينا التحليل، نلاحظ ابن رشد أكثر في شرحه من وصف وحداني التسلط خلافا للفارابي، وهذا يعني أن ابن رشد لم يكن شارحا لأفلاطون في حقيقة الأمر، بل كان محللا لحال الحكم في قرطبة، واصف لنظامها السياسي، وبالتالي ثائرا على الأوضاع السياسية وما آلت إليه زهرة المدائن قرطبة. لقد وجد ابن رشد في الأمير يحي الوسيلة التي يقضي بها على حكم المنصور، فابن رشد يريد من الأمير يحي إن استطاع أن يترأس المدينة أن يرجعها إلى ما كانت عليه سابقا، أي مدينة جماعية، وبعدها يستطيع الفيلسوف الفاضل أن يستفيد من بعض ميزاتها الفاضلة لينشأ جيلا جديدا، يؤسس المدينة الفاضلة. التي صورتها ليست بطبيعة الحال مدينة أفلاطون بل مدينة صاحب الشرع (محمد بن عبد الله).تلك المدينة الفاضلة التي تدبر أمورها وفق العقل والشرع، باعتبارهما أخوين من الرضاعة (الحكمة).

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٠١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠١.

والذكاء الرشدي يذهب إلى عدم بحث إلى ما يتحول إليه الطاغية، وقد كنا سابقا ألفناه يطرح ذلك، ولعل السبب يكمن في فهم ابن رشد أن المدينة الفاضلة لا يمكن أن تنشأ بعد مدينة الطغيان مباشرة. فالأحرى بهذه الأخيرة أن تتحول إلى مدينة جماعية أولا، وبعدها يقتنص الفيلسوف فرصة وجوده في مدينة الحرية ليحقق مشروعه السياسي.

* قبل الختام

وقبل أن نختم المبحث، سنجرى مقارنة بين تقسيمات الفارابي وابن رشد للمدن المضادة للمدينة الفاضلة، فالفارابي قسمها من حيث العموم إلى أربع مدن: فاضلة- جاهلة- فاسقة - ضالة. بينما ابن رشد اعتبرها اثنتين: فاضلة - غير فاضلة، وبالتالي لم يتحدث عن الفاسقة أو الضالة.

ومن جهة أخرى الفارابي صنف المدن الجاهلة إلى ست أصناف: م. الضرورة - م.النذالة - م. الخسة - م. الكرامية- م.التغلب - م.الجماعية. في حين اعتبرها ابن رشد أربع مدن جاهلة، ورتبها على الوتيرة التالية: م. الكرامة-م. القلة (النذالة)- م.الجماعية - م. رياسة وحدانية التسلط.

ومنه نلاحظ أن ابن رشد يُدغم نوعين من المدن في نوع واحد، فمدينة الخسة والتغلب تندرج عنده ضمن رياسة القلة، أما المدينة الضرورة فهي عند ابن رشد مقصاة من الترتيب لكونها ممتنعة عن الوَّاجد التاريخي، ذلك أنها كانت نتاج أول تجمع بشري عرفه الإنسان عند خروجه من الحالة الطبيعية. وبالتالي تصبح المدن الرشدية ست أنواع إذا أضيفت لهما المدينة الفاضلة التي تنقسم بدورها إلى اثنين: رياسة الملك ورياسة الأخيار.

يبرر ابن رشد تقسيمه كون أفلاطون هو الذي وضعه على تلك الوتيرة: "إن أفلاطون يرى أن السياسات البسيطة التي تنشأ عليها هذه المدن هي في الجملة خمسة

أنواع: النوع الأول السياسة الفاضلة التي تقدم الكلام فيها، والثاني رياسة الكرامة، والثالث رياسة رجال القلة وهي خدمة المال وتعرف أيضا برئاسة الخسة. والرابع الرياسة الجماعية، والخامس رياسة وحداني التسلط. فإذا قُسمت الرياسة الفاضلة إلى رياسة الملك ورياسة الأخيار صارت الرئاسات أنواعا ستة[١]". وهذا الترتيب يتفق مع ما أورده أ.عبد الرحمن بدوي في كتابه (Histoire de la philosophie en Islam) حيث يعرض المدن عند ابن رشد على الوتيرة التالية: المدينة الفاضلة - الكرامة - القلة -الجماعية - الطغيان - أحادي التسلط[٢].

وبعد ما تم نقل الإنسان من باب تسليم الحال إلى باب ضرورة فهم الحال، فإن عملية تجاوز الوضع الفاسد لأنظمة الحكم تستوجب طرح السؤال الآتي: كيف يُنشئ الفيلسوف مدينته الفاضلة.؟؟

المدن	الفارابي	ابن باجة	ابن رشد	الملاحظة
المدن من حيث العموم	٠٤ الفاضلة الجاهلة الفاسقة الضالة.	٠٥ مدينة الفرد الإمامية/ الكرامية الجماعية، التغلب.	٠٢ الفاضلة الجاهلة.	لم يذكر ابن رشد المدن الفاسقة والضالة.
الجاهلة	٠٦	٠٤	٠٤	اختلاف في الترتيب والتسمية
٠١	مدينة الضرورة	لم يذكرها	لم يذكرها كمدينة مستقلة.	اعتبرها ابن رشد حالة أولى غير قابلة للتكرار.
٠٢	م. النذالة	لم يذكرها .	م. القلة (الأولى عند ابن رشد)	اعتبر ابن رشد أن النذالة أحد صفات

(١) الضروري في السياسة، ص١٦٨.

(2) Badawi, Abdurrahman, Histoire la philosophie en Islam, P 863.

				أنظمتها.
٠٣	م. الخمسة	لم يذكرها	لم يذكرها كصنف	اعتبرها من لواحق مدينة القلة.
٠٤	م. الكرامة	م. الكرامة (الثانية)	م. الكرامة (الثانية)	توافق
٠٥	م. التغلب	م. التغلب (الرابعة)	لم يذكرها كصنف	اعتبرها من لواحق م. القلة
٠٦	م. الجماعية	م. الجماعية (الثالثة)	م. الجماعية (الثالثة)	توافق.
٠٧	لم يذكرها	لم يذكرها	م. وحداني التسلط (الرابعة)	تفرد بذكر هذا النوع ابن رشد، لأنه عايشه.
٠٨	لم يذكرها مستقلة	م. الإمامية (الأولى)	لم يذكرها مستقلة	الإمامية من الأفعال فقط

المبحث الثاني

النظرية التربوية في المشروع الرشدي

يرتبط نشوء أي نظام سياسي جديد بفلسفة التّربية، لأن لكل حكم طبيعته الخاصة التي تفرض وجود نوع من التربية تعمل على تدعيم السلطة والحفاظ على إيديولوجيتها. والمسألة التربوية منذ القدم اعتبرت جوهر الصراع بين القوى التي تحلم بالسلطة وتأسيس الدول والمدن. ذلك أن كل نظام سياسي جديد إلا ويعتبر من سبقه